أصداء شهود عيان ..

الثورة العباسية

البروفسور الدكتور
فولف ديترش فيشر

عند استقصاء احداث تاريخية ترجع الى عهد قديم جدا ، يجد الباحث نفسه في التاريخ والادب نفسه دائما امام مشكلة ، هي ان المصادر المتوفرة لديه لاتعطيه صورة واضحة عن الاحداث ، حيث ان مايعرضه المؤرخون القدماء من الاحداث لايخلو من حكمهم عليها النابع من آرائهم الشخصية .

لذا تكون الاخبار التاريخية كلها متأثرة بآراء ناقليها الشخصية وتحيزاتهم وهذه الحقيقة لا تشكل ضررا عندما يكون المؤرخون معاصرين للاحداث التي يدوونونها ، لان تحيزهم الى جهة او اخرى يلقي ضوءا على احداث عصرهم . ولكنها عقبة كبيرة امام الباحث في التاريخ والادب عندما يكون ناقلو الاحداث التاريخية قد دونوها بعد مئات السنين من وقوعها وقاسوها بمقاييس عصرهم الذي عاشوا فيه . لذلك نقول ان الاخبار التارخية المنقولة عن شهود عيان للاحداث تعتبر مصدرا ذا اهمية كبيرة يرجع اليه عند الحكم على الاحداث التاريخية ، لان شهود العيان هؤلاء ينقلون الينا شيئين : الاحداث وحكمهم عليها في زمنها . اما من كتب من المؤرخين عن الاحداث بعد مضي عهد طويل على وقوعها ، فان نظرته اليها تكون مبنية على المكانة التي يمنحها التاريخ لتلك الاحداث فيما بعد ، بينما لايقدر المعاصر ان يتنبأ عن أهمية الاحداث في المستقبل او الشهرة التي سيصل اليها اشخاص تلك الاحداث . فهو يخبرنا عن أولئك الاشخاص بعيوبهم

وأخطائهم ومشاكلهم غير المحلولة .

هذه الحقيقة التي ابرزها هنا بشكل عام تظهر بوضوح عندما نقيسها على حدث من اهم احداث التاريخ العربي الاسلامي ، ألا وهو الثورة العباسية في القرن الثاني الهجري .

لاتوجد لدينا وثائق تاريخية دونت في ذلك العصر ، والمعروف عند الباحثين في التاريخ هو ان جميع المؤرخين الذين نستطيع ان نعتبر مؤلفاتهم مراجع لتلك الاحداث ، عرضوا احداث ذلك التغير الجذري في دولة الخلفاء عرضا موال للعائلة الحاكمة الجديدة . لهذه الاسباب يجب علينا ان نولي اقوال شهود العيان الذين عاصروا الاحداث اهمية خاصة . حتى ولو كانت اقوالهم لاتمس الاحداث الا قليلا ولا تنير الا جانبا صغيرا منها .

وعند النظر الى الثورة العباسية من زاوية التقلبات اجتماعية التي رافقتها ، والتي لانعرف الكثير عنها ، نرحب بكل ملاحظة مهما صغرت، اذا كانت هذه الملاحظة تلقي ضوءا على الاحداث . فان من المع شخصيات ذلك العصر ، رجلا كانت له اوثق الصلات بالخلفاء الاوائل من بني العباس ، ذلك هو ابو دلامة ــ معتوق لانعرف عن اصله اكثر من ان اباه كان عبدا مملوكا في الكوفة ، الامر الذي يدلنا على انه نشأ في ابسط الظروف الاجتماعية . ان هذا الرجل كان شاعرا لا غنى عنه عن الخلفاء العباسيين الثلاثة الاول ، وكان له بذلك اطلاع تام على الامور الخاصة للبيت الحاكم . وهذه الحقيقة تدلنا على ذكائه الخارق وقدرته التامة على التلاؤم مع الظروف .

ان بلوغ هذا الرجل تلك المرتبة العالية في البيت الحاكم ، رغم انه لم يكن في السابق مواليا للعباسيين ، ورغم انه وضيع الاصل ، وجرأته ووقاحته كما سنرى ، تضعنا امام مشاكل تطلعنا حلولها على الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك العصر . فقد كان هذا الرجل يحيا حياة صاخبة متحررة من كل قيد ، مخالفا للعرف الاخلاقي ولاحكام الدين ، لدرجة انه كان بتصرفاته يسيء علنا الى سمعة الخلفاء العباسيين

الذين تبنوه • فنحن نجد بين ما نقل الينا من الاخبار في كتاب الاغاني لابي فرج الاصفهاني ان الشرطة قبضت عليه في احد الايام اذ وجدته يترنح من شدة السكر ، وعندما قيل له : من انت وما دينك ؟ قال[1] :

ديني على ديـن بني العبـاس
مـا ختـم الطـين على القرطاس
اني اصـطبحت ارعـا بـالكاس
فقـد أدار شـربها بـراسـي
فهل بما قلت لكم من باس

ويحكى عنه انه كان قد وعد موسى بن داود ابن عم السفاح ، ان يرافقه في سفرته للحج الى مكة ، وحصل منه على عشرة آلاف درهم لنفقات السفر ، وعندما آذنت قافلة الحج على المسير لم يكن احد يستطيع ان يجد أثرا لابي دلامة • واخيرا عثر عليه الناس سكرانـا يتنقل بين القرى • فأمر موسى بأخذه وتقييده وطرحه في محمل بين يديه ففعل ذلك به • فلما سار غير بعيد اقبل على موسى ونادى :

يا أيها الناس قولوا أجمعين معـا صـلى الاله على موسى بن داود
كان ديباجتي خـديه مـن ذهب اذا بدا لـك في أثوابـه السـود
انـي أعـوذ بـداود وأعظمـه مـن ان اكلف حجا يا ابـن داود
خبرت ان طريق الحـج معطشـة مـن الشراب وما شربي بتصريد
والله مـا في من أجـر فتطلبـه ولا الثنـاء عـلى ديني بمحمود

فقال موسى القوه لعنه الله عن المحمل ودعوه ينصرف ، فالقي وعاد الى قصفه بالسواد حتى نفذت العشرة آلاف درهم[2] •

وهكذا كان ابو دلامة يخالف تعاليم الدين ، رغم انه كان في خدمة الخلفاء الذين كانوا قد استلموا زمام السلطة حديثا واعلنوا انهـم سيحكمون الدولة والمجتمع حسب شرائع لقرآن •

ان لدينا عددا كبيرا من الطرائف التي تروى تمرده على شعائر

الدين التي تحد من تصرفه الشخصي . فمرة حاول ان يتملص من الصوم في سنة شديدة الحرارة وذهب خصيصا الى الخليفة يستأذنه بذلك . وعندما حاول المنصور ان يجبره على الصوم في سنة اخرى لجأ الى ريطة ابنة السفاح يسألها العون . كما كان ايضا يتثاقل من أداء فريضة الصلاة ، فأمره المنصور ان يحضر صلاتي الظهر والعصر في مسجد القصر، وفي هذه المرة ايضا تمكن ان يتملص من ذلك التكليف بأبيات قليلة من الشعر .

اذن ما هي يا ترى الخدمات التي اداها هذا الرجل للبيت الحاكم الحديث العهد بالسلطة ، ماهي الخدمات التي اداها هذا الرجل وبفضلها كان يجرؤ على تلك التصرفات ، ولا يخضع لاوامر الحكام الذين لم يكن ليصعب عليهم ان يعاقبوه ويذلوه ويجبروه على الطاعة لو أرادوا ؟

ليس هناك ادنى شك في انه لم يكن من الاتباع القدماء لاهل البيت . كما انه لم يؤد خدمات سياسية للبيت العباسي في صراعه مع الامويين على السلطة ، كما لم يكن من الممهدين للثورة في خراسان . بل على العكس من ذلك كان في خدمة اعدائهم قبل الثورة العباسية ، وربما كان يخدم في جيش مروان بن محمد ، آخر خلفاء الامويين . اما الدور الذي لعبه هناك فينقله الينا ابن قتيبة في حكاية تزيده غموضا بدلا من ان توضحه : وهي ان ابا دلامة خرج اثناء الحرب ضد الخوارج الى المبارزة طمعا بخمسة آلاف درهم وضعها مروان جائزة . وقال ابو دلامة ـ كما يروي ابن قتيبة[٣]

فلما نظرني الخارجي علم اني خرجت للطمع فأقبل الي متهيأ واذا عليه فرو قد اصابه المطر فابتل ثم اصابته الشمس فاقفعل واذ عيناه تفدان كأنهما من غورهما في وقبين فلما دنا مني أنشأ يقول :

وخارج أخرجه حب الطمع

فر من الموت وفي الموت وقع

من كان ينوي اهله فـلا رجع

فلما وقرت في اذني انصرفت عنه هاربا وجعل مروان يقول : مـن هذا الفاضح ايتوني به : فدخلت في غمار الناس فنجوت .

ان اهمية هذه الحكاية من الناحية التاريخية موضع شك كبير ، اذ نقلت عن احمد بن سعيد الدمشقي حكاية مشابهة لها مفادها ان ابـا دلامة اضطر الى المنازلة عندما كان في جيش حاتم المهلبي . وقـد وصف فيها عدوه الخارجي بنفس هذه الكلمات (عليه فرو وقد اصابه المطر فابتل واصابته الشمس فاقفعلّ وعيناه تقدان) . الا ان حكايـة تروى ان رجلا من اشد الناس صلة بخلفاء العباسيين قد خدم في جيش اكبر اعدائهم مروان بن محمد ، لايمكن ان تكون مختلفـة بكـل محتواها . لعل الغرض المقصود منها ليس اظهار عجز ابي دلامة فـي ميدان القتال ، بل الاشارة الى عدم اهمية الدور الذي كان يلعبه عندما كان في خدمة خلفاء بني امية .

من المؤكد ان هذه الحكاية لاتروى الحقيقة كاملة ، لان رجلا يملك تلك المقدرة البلاغية والامكانات الشعرية مثله لم يكن ليكتفي بمنصب مهرج في الجيش . اذن اين اكتسب مقدرته اللغوية والبلاغة ياترى ؟ لاشك ان اناسا من اولي البر اكتشفوا ذكاءه وتبنوه ، فهو لم يكن من مستوى اجتماعي يتيح له الاتصال بالاوساط الادبية . ولن نجد اولي البر هؤلاء الا في اوساط الامويين الارستوقراطية . اذ ان هذه الاوساط كانت تعتني بالشعر تبعا للتقليد العربي القديم . كانت طبقة الامويين الحاكمة تعتبر الشعر ارقى فن أدبي وتوليه اكبر احترام ، لدرجة ان الخلفاء انفسهم اخذوا يبارون الشعراء بنظمه . ماذا كان الـدور الاجتماعي للشعر الذي منحه تلك المرتبة العالية في بلاط الامويين ؟ نجد ان الشعر كان يعتني به في مجالين : اولهما مجال الترفيه عند طبقات المجتمع العليا ، حيث كان الغزل وما يصحبه من الغناء يلعب دورا مهما في مجالس الترفيه . فلا عجب ان يتزاحم المع ارباب هذه الحرفـة

الترفيهية في قصور الخلفاء • واحد الارباب الاوائل لهذا الفن هو عمر بن ابي ربيعة ، وان لم يكن قد ساهم بفنه في قصور الشام وانما في المدينة المنورة • اما قصر الخليفة فقد كان عامرا بشعراء آخرين •

ومن ناحية اخرى كان الشعر تعبيرا عن الوعي العام السياسي • وكانت مرتبة القادة السياسيين متوقفة الى حد كبير على صيتهم الذي كانوا يكتسبونه ليس بأفضالهم فقط وانما ايضا بما كانت تتركه الاشعار التي قيلت في مدحهم من أثر في نفوس الناس • مدح الشعراء او ذمهم كانا العاملين الموجهين للوعي العام السياسي • وهكذا كانت للشعر في ذلك الزمان مهمة يمكن ان نقارنها بمهة الصحافة في عصرنا ، ولم يكن أي حاكم في غنى عن عون أذكياء الشعراء ودعمهم له ، فقد كان الفضل للشعراء في تبرير افعال الحكام وتحبيبها الى قلوب الناس • وكم من فعلة احجم الحاكم عنها خوفا من لسان سليط كلسان الفرزدق مثلا • وكان لكل شعراءه الذين كانوا يسعون الى القاء ضوء جميل على أهدافه السياسية • اننا نجد عند الامويين وعند الخوارج شعراء كثيرين خدموا مصالح حزبهم بنظم الاشعار •

ان مما يلفت النظر تحت هذه الظروف هو ان الدعاية السياسية التي استهدفت تغيير الحكم لم تكن تستخدم الشعر في اعدادها للثورة العباسية • ولا يمكننا ان نستقصي اسباب ذلك في هذا الاطار • من الجائز ان يكون من الاسباب اشتراك الموالي الاعاجم في الثورة او الحرص على انجاز لعمل انجازا فعالا بتستر • وقد يكون كامنا في اعراض اهل البيت عن الشعراء اقتداء بالنبي الذي كان ينفر منهم • مع اننا لانغفل عن ان النبي لجأ الى الشاعر حسان بن ثابت ليوجه الرأي العام الى وجهه تخدم مصلحة الاسلام • ومهما يكن من امر ، فقد كان الشعراء كاداة للدعاية السياسية من خواص بني امية الحاكمين ، الذين تبنوا فكرة القومية العربية • اما غرماؤهم من اهل البيت فلم يكونوا يملكون اداة الدعاية هذه •

وبعد ان نجحت ثورة ابي مسلم في خراسان واستلم خلفاء العباسيين زمام السلطة كانوا هم ايضا بحاجة الى الشعر كأداة للدعاية السياسية كما كان النبي ، لترفع من شأنهم في المجتمع • ومن الواضح ان ابا دلامة ، ذو القدرة البلاغية الفائقة ، أدرك بسرعة ان الظروف مواتية له ، فوهب نفسه لهذه المهمةدون قيد او شرط • وعندما نشب خلاف بين ابي مسلم والمنصور نجح ابو دلامة في تبرير تصرف الخليفة بتأويل حاذق للاحداث التي جرت حيث قال(٤) :

أبا مسلم خوفتني القتل فاتنحى
عليك بما خوفتني الاسد الورد

أبا مسلم ما غير الله نعمة
على عبده حتى يغيرها العبد

لم ينقل الينا التاريخ الا قليلا من شعر ابي دلامة المكرس للدعاية السياسية(٥) ، كما ان الثورة الشعرية من ذلك النوع ، التي كانت متوفرة ولا شك ، قد ضاعت ، لانها كانت تعالج امورا يومية لم يستوعبها الناس في العصور التالية لذلك العصر ، او انها لم تحظ باهتمامهم •

من البيتين التاليين نستطيع ان نأخذ فكرة عن ذلك النوع من الشعر الدعائي وعن تعظيمه لحكام الاسرة الحاكمة الجديدة :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس

ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكم
الى السماء فأنتم أظهر الناس

وهنا نرى ان هذا النوع من التعبير هو غير مألوف في الادب الاسلامي او في التراث الادبي العربي • فابو دلامة شاعر لايتبع الاسلوب التقليدي وغير ذلك مما وصل الينا من اشعاره ، مثل قصيدة

البغلة المشهورة ترينا تحولا تاما عن الاسلوب التقليدي لشعر العصر الامـوي .

ان اتقان هذا الرجل لاستعمال اداة الشعر السياسي في اسلوب لغوي جديد جعله من الشخصيات التي لاغنى عنها للاسرة الجديدة الحاكمة .

فأسلوبه يختلف اختلافا تاما عن اسلوب الشعر السياسي الـذي كان مألوفا في عصر بني امية ، وهـذا ما لم ريده او يقـو عليـه احد من الشعراء الذين كانت لديهم صلة بالطبقة الحاكمة في العصر الاموي .

لقد كان تاريخ الادب ينظر الى ابي دلامة هذا نظرته الى مهرج ومهزار على بلاط الخلفاء ، ويغفل بذلك عن مهمته الرئيسية التـي كان يؤديها ، ألا وهي كسب الرأي العام الى جانب الاسرة الحاكمة الجديدة . وقد قام بمهمته هذه احسن قيام وعلى وجه ارضى الخلفاء كل الرضى .

أما دور المهرج والمهزار فقد كان يؤديه في المناسبات الخاصـة للبلاط ، حيث لم تكن له مكانة تسـاوي مكـانة افراد الطبقـة الارستوقراطية التي كان يختلط بها ، فكان يعوض عنها بظرافتـه وبحضور بديهيته .

ان الهوة السياسية التي نشأت بين العباسيين وسلفهم ، أتاحـت المجال لرجل وضيع المنشأ ان يصل عندهم الى مرتبة تغفر له عندها اية وقاحة يجرؤ عليها ، كما رأينا سالفا . لقد حول ابو دلامة الانفصال السياسي بين العباسيين وسلفهم ، الى تحول عن الاسلوب الادبـي الدارج ، ومهد الطريق لتطور شعر جديد في العهد العباسي . وكان ابو دلامة من أوائل الرجال الذين احرزرا عن طريق الشعر العربي مجدا وشهرة ، مع انه لم يكن من طبقة الاسر العربية الراقية . وبذلك ساهم ابو دلامة في اعطاء اللغة العربية مهمة اجتماعية جديدة في العصر العباسي .

اما في العصر الاموي فقد كانت اللغة العربية الفصحى مقصورة على الطبقة الحاكمة ، أي على العرب ، اذ انها كانت لغة ادبية للقوميـة العربية . اما بعد الثورة العباسية فقد اصبحت اللغة العربية لغة الطبقة المتقدمة الاسلامية ، سواء كان من ينتمي الى هذه الطبقة عربيا او أعجميـا .

ملاحظـات :

(١) انظر الاغاني ١٠ ص ٢٥١ .

(٢) انظر الاغاني ١٠ ص ٢٤٦ .

(٣) انظر الاغاني ١٠ ص ٢٤٥ .

(٤) انظر الاغاني ١٠ ص ٢٣٥ – ويوجد في البيت الثاني رواية اخرى وهي (ابا مجرم) بدلا عـن (ابا مسلم) واعتبرها غير اصلية .

(٥) جمع ما بقى من شعر ابي دلامة محمد بن شنب .

Abu Dolama:
Poéte bouffon de la Cour
des premiers Califes abbassides
par Mohammed Ben Cheneb
Alger 1922